تجليات أنساق الظاهرة الاستشراقية وأثرها في تكوين الخطاب الاستشراقي

الدكتورة نعيمة رحماني، جامعة تلمسان

الملخص: أدرك الغرب أن النسق الديني الاسلامي هو سرّ استحكام وقوّة المسلمين، فهو الذي يحشد كلمتهم على الحق ويوحد شملهم، وينصرهم على اعدائهم، فقد كان ولا يزال يمثل عقيدة منافسة للمسيحية وللعالم أجمع، وانتشارها أمر بالغ الخطورة عليهم. لهذا لجأ الغرب إلى طريقة أخرى لمحاربة الاسلام بدل السلاح ووظّف القلم في سبيل ذلك؛ حيث استعان بثلة من المستشرقين المتعصّبين لدينهم من أجل وقف زحفه في خلال ظاهرة الاستشراق. فما هي اذن أنساق الظاهرة الاستشراقية وفيما تتجلى؟ وهل ساعدت فعلا على الحدّ من انتشار الاسلام كما كان مخططا له؟ وكيف أثرت تلك الانساق في صياغة الخطابات الاستشراقية التقليدية والمعاصرة؟

الكلمات المفتاحية: الانساق، الظاهرة الاستشراقية، الخطابات الاستشراقية

Abstract: The West has realized that the Islamic religious system is the secret of the strength of Muslims: it is he who mobilizes their word on the truth, unites them and supports them against their enemies. It is still represents a doctrine of competition for Christianity and the whole world. Its spread becomes a real danger to them. Thus, the west has resorted to another means of fighting Islam in the place of arms and has used the pen to that reason, helped by a number of orientalist fanatics to keep the Islamic religion on hold through the phenomenon of orientalism. So what are the systems of the orientalist phenomenon and what does it unfold? Did it really help to stop the spread of Islam as planned? And how did these systems influence the formulation of traditional and contemporary Orientalist rhetoric?

Keywords: Format, Orientalist phenomenon- Orientalist discourse

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1) **تجليات النّسق الدّيني واثره في تكوين الخطاب الاستشراقي:** إذا انطلقنا من اعتراف المستشرق الايطالي ليون كايتاني Caetane Léone (1869م-1935م) أنّه "يريد ان يفهم سرّ المصيبة الاسلاميّة التي انتزعت من الدين المسيحي الملايين من الاتباع في شتى أنحاء الارض". (رائد،ع. 5:2014) ومن قول المستشرق الهولندي أدرياند ريلاند Hadrian Reland (1676م-1718م) في كتاب الباحث محمد محمود زقزوق : "...صحيح ان الدين الاسلامي سيء جدا وضار بالمسيحية الى حد بعيد، ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب ان يبحثه؟ الا ينبغي للمرء ان يكشف اعماق الشيطان وحيله؟ إن الأحرى هو ان يسعى المرء للتعرف على الاسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة اكثر امانا واشد قوة."(زقزوق، م. 43:1998) يمكننا إذن ان نفهم خطاب النسق الديني المسيحي الذي استعان بكل الوسائل المتاحة له من أجل محاربة النسق الديني الاسلامي، بما في ذلك تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلّم، وانكار الوحي الذي انزل عليه، والطعن في اخلاقه وازواجه، منذ اتصال رجال الدين المسيحي بالمصادر الاولى للإسلام. إذ كانت خطاباتهم تحمل في طياتها أحكاما مسبقة مفادها أنّ هذا الدين معادي للنصرانية، وان الاسلام قوة خبيثة شريرة، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس إلا صنما أو إله قبيلة أو شيطانا؛ وهكذا غزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين.(زقزوق، م. 29:1998) والنتيجة كانت تصديق الناس لهذه الخرافات وتأييدها لسنين في الكتابات الاستشراقية. وما كان إنشاء كراسي تدريس اللغة العربية في المجتمعات الغربية إلاّ أداة هدفها محاربة النسق الديني الاسلامي، بتشويه وتحريف حقائقه وانتهاج سياسة تنصير المسلمين بغية ابعادهم عن دينهم، والطعن في عقيدتهم، وانتهاج سياسة فرق تسد بين اهل السنة والطوائف الاخرى مثل الصوفية وغيرهم، والسعي لإحياء اللهجات المحلية لتفريق المسلمون وابعادهم عن لغة القرآن.

ولكي يكون للعمل التبشيري المسيحي معنا عمليّا على أرض الواقع تم اللجوء الى النسق الاستعماري، حيث أخضع النسق الديني المسيحي السكان الأصليّين وجعلهم يتقبّلون وجود ثقافة جديدة تدين بدين جديد، ليصبح بذلك التبشير اداة للغزو الايديولوجي، تُحكم قبضتها وسيطرتها على الشعوب المسلمة المستضعفة. حيث تقول الباحثة شارلوت سميث: "لقد قام المبشرون بدور حيوي في تهيئة المستعمرات للتكيف مع الهيمنة الاستعمارية في تنظيمهم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بطريقة تجعلهم اسهل انقيادا للنظام الاستعماري، وفي نشر أفكار أيديولوجية جديدة تساعد على قبول الهيمنة الاوروبية."(سيمر، ش. 108:2008)

ودعما للرأي السابق نسرد تقرير وزير المستعمرات البريطاني ديفيد اورمسبي غور Ormsby Gore (1918م-1985م) لرئيس حكومته بتاريخ 9 يناير 1938م يقول فيه ما يلي: "إن الحرب علمتنا ان الوحدة الاسلاميّة هي الخطر الاعظم الذي ينبغي على الامبراطورية ان تحذره وتحاربه، وليس الامبراطورية وحدها، بل فرنسا ايضا، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، واتمنى ان تكون إلى غير رجعة. إن سياستنا الموالية للعرب في الحرب العظمى (يعني الاولى) لم تكن مجرد نتائج لمتطلبات تكتيكية ضد القوات التركية، بل كانت مخططة ايضا لفصل السيطرة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة عن الخلافة العثمانية التي كانت قائمة آنذاك. ولسعادتنا فإن كمال أتاتورك لم يضع تركيا في مسار قومي علماني فقط، بل ادخل اصلاحات بعيدة الأثر، أدت بالفعل إلى نقض معالم تركيا الاسلاميّة..."(زقزوق، م. 120:1998)

لقد شكلت الوحدة الاسلامية خطرا عظيما على النسق الديني المسيحي، واستلزم ذلك استنفار كل الجهود من اجل محاربة الاسلام والمسلمين في كل البلاد المسلمة خاصة تلك التي كانت تحت راية الدولة العثمانية لما سببته لهم هذه الأخيرة من هزائم على جميع الأصعدة ولّدت حقدا كبيرا لمحاربتها وارساء معالم الدولة العلمانية الموالية للنسق الديني المسيحي. وما توالت الحروب بعد ذلك ضدّ البلدان الاسلامية إلا استكمالا لمخططات استشراقية دينية واستعمارية سياسية كما سنرى لاحقا.

2) تجليات النّسق الاستعماري السلطوي المعرفي وأثره في تكوين الخطاب الاستشراقي

بينما وصلت الحضارة الاسلامية إلى أرقى مستويات التطور الحضاري كانت لا تزال الدول الغربية تعمه في تخلفها، ونتيجة لذلك طمع فيها الغرب وخطط للاستلاء عليها معرفيا وجغرافيا. ورغم انه مُني بالكثير من الهزائم على يد الجيوش المسلمة إلا انه ظل يتحيّن الفرص للثأر، واستعان بالظاهرة الاستشراقية كغطاء سمح له بتعلم لغات الشّرق،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ودراسة حضارته تمهيدا لاحتوائه، وفي هذا الصدد يقول الباحث ادوارد سعيد: "لا بد من التسليم بوجود خطوات كثيرة تتّسم بطول المدى...مكنت الوعي الاوروبي بالشّرق من التحول من وعي يقوم على النّصوص والتأمل إلى ظاهرة إدارية واقتصادية بل وحربية... إذ كان المستشرقون يخترقون المكان الجغرافي للشرق، ويعدّلونه ويمتلكونه.. وأدى الاثر التراكمي إلى تحويل الشّرق من مكان اجنبي إلى مكان استعماري."(ادوارد، س. 331:2006) فالظاهرة الاستشراقية لم تكن من اجل تعديل النسق ثقافي بقدر ما كانت من أجل تبرير النسق السياسي الاستعماري. وفي هذا المقام نعيد ونذكر دائما ان هناك دراسات استشراقية رصينة ساهمت في التعريف بالتراث الاسلامي الا ان اغلبها صبّ في خدمة النسق الاستعماري اكثر من النسق العلمي الموضوعي.

وخدمة للنسق الاستعماري تفنّن المستشرقون في انتهاج أسلوب القرصنة، إذ تمت قرصنة وسرقة جلّ التّراث الإسلاميّ من تحف ومخطوطات وارسالها إلى المتاحف الغربية؛ كمتحف اللوفر في باريس وغيرها، باسم البحث العلمي الانثروبولوجي أو الأركيولوجي. كما انتهجوا ايضا أسلوب التجسّس المعرفي من اجل توفير المعلومات المطلوبة عن الشعوب المسلمة قصد الاستيلاء على خيراتها وثرواتها. وابلغ مثال على ذلك عنوان ومحتوى الكتاب الذي كتبه المستشرق البريطاني دفيد جورج هوجارث David George Hogarth (1862م- 1927م) رئيس المكتب العربي في القاهرة في الحرب العالمية الاولى عن استكشاف الجزيرة العربيّة بعنوان "اختراق بلاد العرب" عام 1904. (ادوارد، س. 331:2006) وهكذا نجد أن جلّ المستشرقين قد سخروا اعمالهم وبحوثهم خدمة للنسق الاستعماري، وهنا ندرك مدى ارتباط النسق المعرفي العلمي بالنسق الاستعماري، وخير مثال ايضا استعانة الحاكم الفرنسي نابيليون بونابارت Napoléon Bonparte(1769م-1821م) بكلّ ما كتبه المستشرقون عن مصر، خاصة ما كتبه المستشرق الفرنسي فرونسوا قولني Constantin- François Chasse bouef de la Giraudais. dit Volney (1757م- 1820م) في كتابه "رحلة إلى مصر وسوريا" الصادر في مجلدين سنة 1787م،(ساسي، س. 62:2001) إذ قضى نهائيا على الأساطير السّائدة حول قوة المماليك ومناعتهم، وبيّن جهلهم طرق الحرب الحديثة، وانه من السهل فتح مصر،(زكي، م. دت:41)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبناء على ذلك وبالاستعانة بأعمال المستشرقين ذات الغاية الاستعمارية حول ثقافة الشعب المصري تمّ تأليف كتاب ضخم بعنوان "وصف مصر" طبع في 23 مجلدا.(ساسي، س. 90:2001) وبعد الالمام بثقافة الشعب المصري ومعرفة عاداته وتقاليده وعقيدته التي وفرتها بغزارة الدراسات الاستشراقية، استعان بها نابليون ووظفها في سياسته قصد استمالة الشعب المصري، إذ ادعى انه يحارب من اجل المسلمين، حيث جاء في خطابه لجنوده الصادر سنة 1798م:" أيها الجنود...إن الشعب الذي سنتصل به يدين بدين الاسلام وأول اركانه شهادة أن لا إله الا الله، وأن محمدا رسول الله، فلا تعارضوهم في دينهم...واحترموا مشايخهم وأئمتهم...وستجدون هناك عادات تختلف عن عادات أوروبا فعليكم أن تألفوها...وإن الشعب الذي سنقيم بينه يعامل النساء على غير عادتنا، والاعتداء على اعراض النساء جريمة..."(فرج، م. دت:20) وعندما خاطب المصريين أول مرة قال: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله الا الله لا ولد له، ولا شريك له في ملكه...إنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن الكريم." ثم خاطب الائمة قائلا : "قولوا لأمتكم أن الفرنسيين هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام."(فرج، م. دت:24) إن خطاب نابليون خير دليل على العلاقة الوطيدة بين النسق الاستعماري والنسق المعرفي المبني على استحضار المعلومات التي تم جمعها في اطار الدراسات الاستشراقية والتي قدمت معطيات وفيرة حول عادات ومعتقدات شعب مصر قصد توظيفها لغايات استعمارية محضة.

لقد ساندت الدراسات الاستشراقية الحملة الفرنسية على مصر في خلال امدادها بالمعلومات المطلوبة، الأمر الذي رخّص لنابليون اضفاء الصبغة الاسلامية على خطابه في ظل مشروعه الاستعماري، وكانت الغاية من ورائه استمالة الشعب المصري وخداعه. وهنا يتضح جليا ان المعرفة بالأخر التي أوفدتها الدراسات الاستشراقية هي التي صقلت نوع وشكل الخطاب، اذ اعتمد نابليون في خطابه على استراتيجية التأثير على القلب واستمالة الحس الديني لدى شعب مصر، محاولا تطويق الحدث الخطابي في خلال توظيف النسق المعرفي السامي مع حضور النسق السلطوي الاستعماري المحتشم مؤقتا في الممارسة الخطابية؛ وسعيا منه لتجسيد مشروعه الاستعماري " أقصى الخطاب الغربي المتعالي ضد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشرقي، وانتقى خطابا يتناغم ويتجانس مع عقيدة الشعب المصري، وهنا قام نابليون بتطبيق حيلة التبادل المعرفي والسلطوي محددا بذلك خطاباته الاستعمارية في خلال المعرفة التي استقاها من المستشرقين". (الحياتي، م. دت، 34)وهكذا اصطبغ الخطاب المعرفي الاستشراقي بصبغة رسمية مؤسساتية عادت بالنفع على النسق السياسي المهتم بالشأن الشرقي، وتشابك النسق السياسي السلطوي مع النسق المعرفي.

وقد انتهجت فرنسا السياسة نفسها في شمال افريقيا وخاصة في الجزائر، إذ قام المستشرق أنطوان ايزيك سيلفستر دي ساسي Antoine Issac Silvestre de Sacy (1758م-1838م) الذي خدم الاستعمار الفرنسي في الجزائر بإعداد بيان طغى عليه اسلوب التعبير المعتمد في شمال افريقية عام 1830م جاء فيه: " بسم الله المبدئ المعيد وبه نستعين....اعلموا وتأكدوا يقينا أني لست آتيا من أجل محاربتكم، فعليكم أن لا تزالوا آمنين ومطمئنين في أماكنكم وكل ما لكم من الصنائع والحرف براحة السرّ. ثم اني احقق لكم أنه ليس فينا من يريد يضركم لا في مالكم ولا في اعيالكم ومما اضمن لكم ان بلادكم واراضيكم وبساتينكم وحوانيتكم وكل ما هو لكم صغيرا كان او كبيرا يبقى على ما هو عليه ...ثم اننا نضمن لكم ايضا ونعدكم وعدا مؤكدا غير متغير ولا متأول أن جوامعكم ومساجدكم لا تزال معهودة معمورة على ما هي عليه الان واكثر، وانه لا يتعرض لكم احد في امور دينكم وعبادتكم."(وثيقة تاريخية، ساصي، أ، المجلد3،عدد5757)

يتضح هنا ان الاسلوب المعتمد في صياغة البيان يدلّ على أن معديه كانوا على علم وفير بثقافة المجتمع الجزائري وبمعتقداته، إذ سخروا النسق العقائدي الاسلامي بغية اقناع الشعب، خاصة ما تعلق بحفظ المساجد والجوامع، رغم ان تلك الوعود التي قطعوها ما لبثوا ان خانوها فحوّلوا جلّ المساجد العثمانية الى اسطبلات بهدف محو الهوية الاسلامية للشعب الجزائري. نلمس إذن في الخطاب الذي بين أيدينا الثقل المعرفي بثقافة الشعب الجزائري، وانتهاج السلطة الفرنسية عملية تحوير لهذه المعرفة قصد خداع الشعب الجزائري، ويظهر ذلك جليا في اقصائهم للنزعة والنبرة الغربية المتعالية واعتمادهم على الاسلوب الشعبوي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المتداول في سبيل الوصول الى الغاية الاستعمارية، لكن ما لبثت ان تغيرت السياسة والوعود الى قتل وتهجير وتعذيب.

واستكمالا للمخططات الاستعمارية المرتكزة على الدراسات الاستشراقية، ارتبط النسق الديني بالنسق السياسي في مقام آخر عن طريق تسخير التبشير الديني من اجل ترسيخ السياسة الفرنسية بشمال افريقيا، وخير مثال على ذلك ما قام به كبير أساقفة افريقيا ومبعوث البابا بقوته المتمثلة في "الاباء البيض" و"جمعية مبشري سيدة افريقيا" الفرنسي شارل مارسيال ألمان لافيجيري Charles Martial Allemand Lavigerie (1825م-1892م) مطران الجزائر منذ عام 1867م، والذي كان الاستعمار والتبشير بالنسبة له وجهين لعملة واحدة. (بوتباقلت، أ. 2015: رابط) فبسبب المجاعة والاوبئة والامراض التي عرفتها الجزائر عام 1868م كان يؤتى بالأيتام إلى دور الملاجئ ودور الرعاية التي يشرف على ادارتها الرهبان والقساوسة بغية تنصيرهم، ورغم كل تلك المحاولات باء عملهم بالفشل بسبب تمسك الشعب الجزائري بدينه، فلم يستطيعوا تنصير إلا ألفا منهم فقط بعد 50 عاما من العمل التبشيري المتواصل. (ساسي، س. 83:2001)

لا يمكننا في أي مقام أن نضع الدراسات الاستشراقية في سلة واحدة، ولكن دراستنا هذه لا تهدف الى تبضيعها بقدر ما نحاول رصد الانساق وعلاقتها ببعضها البعض. فقد غزرت الدراسات الاستشراقية؛ منها من قدمت خدمات جليلة للنسق المعرفي العلمي في خلال التعمق في دراسة التراث الاسلامي ولو بنظرة غربية لم تتمكن من سبر اغوار فكر وتصورات المجتمعات الاسلامية، ومنها من نشأت في حضن النسق الاستعماري، حيث تم استثمار تلك المعلومات لأغراض استعمارية، خاصة الدراسات الانثروبولوجية العسكرية التي توجت بعد مرور عقد من الزمن على احتلال الجزائر بقرابة أربعين مجلدا ما بين بين عام 1844م وعام 1867 فقط، فكانت تحمل بين طياتها انطباعات سطحية وساذجة مرفوقة بآراء العسكريين الشخصية،(اوراغي، أ. 35:2014) مع اطلاق الاحكام الجزافية والمسبقة النابعة من نظرة الازدراء والاحتقار للآخر؛ حيث صوّر المستشرقون الانسان الجزائري "الآنديجان" ذلك البليد الذهن الذي لا يعرف لا التفكير ولا التوقع ولا الانتاج، غير قادر على فهم ابسط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاشياء العامة، وغير واع بمآل حالته الاجتماعية، فهو لا يتطلع الى التقدم ولا يرغب في انجازه اطلاقا، فعمليات التفكير العقلاني والتوقع تعد اشياء غريبة بالنسبة له، ما عدا العمل الشاق، فهو لا يحبذ الا الانغماس في الخيال المبهم الغريزي، وحتى في هذه الممارسة احيانا فهو لا يحسن التصرف بشكل ارادي. (لوكا، ف. 152:2002) نستشف من هذا التصور الاستشراقي علوّ النزعة العنصرية التي نعتت الجزائري بالمتوحش والجاهل، والوحوش الافريقية، والعالم المخيف، والجنس الهمجي، كما تم في السياق نفسه نفي الأصول الامازيغية للشعب الجزائري، اذ قال المستشرق الفرنسي السياسي كاميل ساباتي Camille Sabatier (1851م-1919م): "الايبار هم البربر أي الجزائريين؛ اصلهم من بربرستان وتقع بين كابول وهيرات". (الرحمن، أ. 2017: رابط) كما قال الكاتب الفرنسي بول راينال Paul Raynal (1885م-1971م) في كتابه l'expédition d'Alger ص 101 واصفا الجزائر والجزائريين: "لا شيء يساوي قبح الجزائر، ولا شيء يضاهيها، الارض خلابة ولا تنقصها الا الحضارة، خاصّة لدى البدو الرحل الذين يبدون وكأنهم بشر متوحش، يقطعون الرؤوس بشغف كبير...يتفننون في تعذيب الاسير يقطعون يديه، ثم اذنيه ويوشمونه بالدم على العنق ثم يجتثون انفه ولا يقطعون راسه الا عندما يقارب لفظ أنفاسه"). (بوطقطوقة، م. 2017: رابط) هي اذن خطابات استشراقية ساذجة بعيدة كل البعد عن المعرفة العلمية الحقيقة ترسم الصورة التي يستصيغها المستعمر والتي يسعى من ورائها الى جمع اكبر عدد من مؤيدي استعماره للدول المستضعفة. لقد تغيرت نبرة الخطابات من البيان الاول الذي تفنن في عرض المعتقدات الاسلامية، الى خطابات وكتابات اقرب الى الخيال وتحمل معها استعلاء غربيا عنصريا واضح المعالم.

وعن الغزو الثقافي يقول المؤرخ الفرنسي أوغست برنارد Auguste Bernard (1811م-1868م)" اننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الامن بل لنشر الحضارة واللّغة والافكار الفرنسية...اننا نريد ان نجعل هناك جنسا يندمج فينا عن طريق اللّغة والعادات...وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هوغو." (بوشلوح، س. 2017: رابط) وفي السياق نفسه قال المؤرخ والسياسي الفرنسي الكسيس دوتكفيل Alexis-Charles-Henri Clérel De Tocqueville(1805م-1859م) " لم تكن لنا اية أفكار واضحة عن مختلف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القوميات التي تسكن المنطقة (الجزائر)، وقد كنا نجهل ابسط المعاني لأي كلمة من اللّغة التي يتحدثونها وحتى جغرافية البلد نفسه، موارده، مجاريه المائية، مدنه والخصائص المناخية، ...فعندما نتمكن من اللّغة ومعرفة الخلفيات وممارسات العرب، وعندما نتمكن من اكتساب نفس الهيمنة التي يكنها هؤلاء الرجال للحكم السابق (أي الحكم التركي) عندئذ يصبح المجال متاحا لنا لممارسة اساليبنا في الحكم ومن تم فرنسة البلاد ولفها من حولنا."(لوكا، ف. 2002: 94-97) ثم قام بتقديم تقرير باسم لجنة التحقيق التي قدمت الى الجزائر عام 1847م كتب فيه: "..لقد وضعنا أيدينا على أموال الوقف الموجه للصرف على التعليم والاعمال الخيرية، قضينا على المدارس، التي كانت موجودة، شتتنا مجامع العلماء، لقد اطبق الظلام في كل مكان حللنا فيه... لقد جعلنا المجتمع الإسلاميّ اكثر توحشا وبربرية على ما كان عليه قبل ان يعرفنا." كما جاء في قول الجنرال والمؤرخ الفرنسي غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux (1853م-1944م): "ان مسالة الجزائر قد قبرت نهائيا لم يبق لهم سوى الموت أو الهجرة أو قبول خدمة اسيادهم الاقوى." (لوكا، ف.2002 : 94-97) بالنظر الى هذه الخطابات الاستشراقية يتضح جليا ان النسق المعرفي الفرنسي والذي يخدم النسق السلطوي السياسي قد حمل في طياته ايديولوجية استشراقية استعمارية تنصيرية قضت على الملايين من الجزائريين، كما حاولت المس بهويتهم وعقيدتهم الاسلامية، واصبحت تلك الخطابات حاملة لمعاني الحقد والكراهية للشعب الجزائري بوضوح تام مع عرض مفصل لاستراتيجية الغزو الثقافي ومن ثم الغزو التام للبلاد. الأمثلة جدا كثيرة على مساهمات المستشرقين بأعمالهم في اتخاذ القرارات المصيرية ذات الصلة الوطيدة بالنسق السياسي، حيث ساهموا بشكل كبير في رسم حدود جديدة للعالم، وخير مثال على ذلك اتفاقية سايس بيكو عام 1916م، التي وقعت بين فرنسا وبريطانيا لاقتسام تركة الدولة العثمانية في الشرق الاوسط، اذ أصبح العراق وفلسطين بموجبها من نصيب بريطانيا، فيما باتت سوريا ولبنان تحت السيطرة الفرنسية، واعتمد التقسيم ايضا على تحديد الثروات الطبيعية والمصادر الاقتصادية لتلك البلدان. (محارب، م. 7:2017)

وبالعودة الى النظريات الغربية التي صاغها الغرب بخصوص الشرق سنجد انها ساهمت بشكل كبير في تحديد نوع الخطاب الموجه للأخر، بغض النظر عن الاهداف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السياسية المتوخاة من ورائه. إذ تم تحويل النسق السياسي السلطوي إلى من يملك المعرفة بالشعوب المستعمرة، وهذا معطى يمثل حقيقة المعرفة الخابرة بالأخر الذي يحتاج (في نظرهم) الى من يدير شؤونه، على نحو ما جاء به المستشرق كارل ماركس في كتاب الباحث محمود خليف خضير الحياتي قائلا: "انهم عاجزون عن تمثيل انفسهم. ينبغي ان يمثلوا". (الحياتي، م. دت: ص37) ففي أواخر القرن 19م كانت نظرية الاجناس، والافكار الخاصّة بالأصول البدائية والتصنيفات البدائية ومصير الاجناس البيضاء والحاجة إلى أراضي المستعمرات...كانت جميعا عناصر في مزيج خاص يجمع النسق المعرفي بالنسق السياسي، يهدف في أحايين كثيرة إلى الارتقاء بالجنس الأوروبي على حساب الاجناس الاخرى.....كما نلمح اتفاقا عاما على تجسيد صور النظرية الداروينية التي تقول ان الشّرقيين المحدثين يمثلون البقايا المنحطة لعظمة سابقة، وانه من الممكن ادراك حضارات الشّرق القديمة أو الكلاسيكية فيما اتى به الانحطاط الحالي من ضروب الفوضى. (ادوارد، س. 361:2006) يمكننا القول إذن ان الدراسات الاستشراقية تنامت بشكل كبير مع نمو النسق الاستعماري، بسبب الحاجة اليها من اجل السيطرة على المجتمعات الشرقية وبسط النفوذ عليها.

3) تجليات النّسق العلمي واثره في تكوين الخطاب الاستشراقي

لقد كان لزاما على النسق العلمي الغربي ان يتجاوز ذلك الجمود الذي عرفه مقارنة بأزهى عصور الامة الاسلاميّة. وهذا الامر استوجب عليهم تعلم اللغة العربية وذلك بإنشاء كراسي لها في جامعاتهم مثلما ذكرنا سابقا، أسعفتهم في دراسة التراث الاسلامي واستخراج كنوزه الدفينة. ويحضرنا في هذا المقام قول المستشرق جوليوس مول Julius Mohl (1800م–1876م): " مهما كرّرنا وأعدنا فإننا لا نكرّر بما فيه الكفاية أن طبع المخطوطات الشّرقية الاهم وهو الحاجة الاكبر، والاكثر ضغطا والحاحا بالنسبة لدراساتنا، وبعد ان يكون العمل النقدي للعلماء قد مرّ على الادبيات الشّرقية، وبعد ان تكون الطباعة قد سهلت عمليّة تداول الكتب، بعد ذلك فقط يمكن للعقل الاوروبي ان ينفذ فعلا إلى أعماق الشّرق". (الشرقاوي، م. 18:2016) وبهذا التخطيط الاوروبي تعلم المستشرقون اللّغة العربيّة؛ ومنهم من حفظ القرآن، واطلع على كتب السنة النبوية الشريفة، وكتب الفقه، ومنهم من جال في بلاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المسلمين وخالطهم وتعرف على تقاليدهم واكل اكلهم ولبس ملابسهم وتسمى بأسمائهم. وقد ساعدتهم تلك المعرفة على سبر اغوار الآخر الشرقي، مع احتفاظهم غالبيتهم بالنزعة الاستعلائية في نظرتهم اليه، إذ كانت جلّ كتاباتهم تسعى إلى تفسير تفوّق النّسق الغربي الذي يتميز بالتقدم والتطور في شتى المجالات على النسق الإسلاميّ المتخلف الذي يتميز بالجمود والتردي في كل المجالات في نظرهم طبعا. رغم ان بعض الدراسات الاستشراقية قد اعتمدت على المقاييس العلمية كالمقابلات والمطابقات ونقد الروايات والاستفادة من المصادر العربيّة والاجنبية، والكشف عن الاثار والنقوش المغمورة في البلدان الاسلامية اليمن والاردن والتي كشفت عن حقائق علمية ما كنا لنصل اليها لولا مجهوداتهم الجبارة التي لا يمكن انكارها، ولكن بقيت اغلب تلك الدراسات ممزوجة بأغراض أخرى غير المعرفة العلمية لذاتها. (ساسي، س. 103:2001) حيث يقول عالم الاجتماع الاسترالي البريطاني براين تورنر Bryan Turner(1945م): " كانت مهمة الاستشراق تقليل التعقيد اللامتناهي للشرق إلى نظام محدد من الانماط والخصائص والتشكيلات، ومن ثم كان تمثيل المختارات الادبية للشرق الغريب في جدول منظم من المعلومات المتاحة منتوجا ثقافيا نموذجيا للهيمنة الغربية." (تورنر، ب. 4:2016) كما تم اللجوء الى ما يشبه "تقطير" الافكار الاساسية عن الشّرق وصبّها في قالب منفصل له دلالته ووجوده، فكانت تلك الافكار تركز على ابراز نزعة الشّرق للملاذ الحسية، وللاستبداد، وعقليته المنحرفة، وعدم دقته، وتخلفه، فكانت كلمة "شرقي" تحوي دلالات تحيل القارئ إلى مجموعة محددة من المعلومات. (ادوارد، س. 323:2006) وهذا اعتراف واضح بان الدراسات الاستشراقية تحمل في طياتها خطابات موجهة ومرسلة إلى العقل الغربي تحيله الى دلالات معينة سلبية في غالبيتها تخضع لمبادئ النظريات الغربية التي ترفع من شأن الجنس البشري الغربي وتحط من قيمة الجنس البشري غير الغربي.

واضافة الى تأسيس كراسي اللغة العربية أنشأ المستشرقون في أوروبا وامريكا جمعيات تخصصت في الدّراسات الاستشراقيّة، فتأسست بادئ الامر الجمعية الاسيوية عام 1822م في باريس، وبعدها الجمعية الملكية الاسيوية عام 1823م في بريطانيا وايرلندا، يليها الجمعية الشّرقية الامريكية عام 1842م، ثم الجمعية الشّرقية الالمانية عام 1845م. وتوجت اعمال تلك الجمعيات الاستشراقية بإصدار مجلات متخصصة في الدّراسات الاستشراقيّة؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث صدرت أول مجلة استشراقية في فيينا ما بين 1809م و1818م وسميت "ينابيع الشّرق" من قبل المستشرق النمساوي جوزيف فون هامر بريجشتال Joseph von Hammer Purgstall (1774م-1856م)، وبعدها ظهرت في باريس "مجلة الاسلام الاستشراقية" عام 1895م، يليها صدور "مجلة العالم الإسلاميّ" عام 1906م من قبل البعثة العلمية الفرنسية في المغرب، التي غيرت بعد ذلك اسم المجلة إلى "مجلة الدّراسات الاسلاميّة". وفي عام 1910م، صدرت "مجلة الاسلام" الالمانية، وبعدها بعام اي في 1911م صدرت "مجلة العالم الإسلاميّ" في أمريكا، وفي عام 1912م صدرت "مجلة عالم الاسلام" في روسيا. (رائد،ع. 5:2014) وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تحوّل مركز الدراسات الاستشراقية من أوروبا الى امريكا بسبب انتقال قيادة العالم إلى أمريكا، وهذا يدل على ان النسق العلمي اتبع النسق السياسي وتمركزا معا في أمريكا. وسعت هذه الاخيرة جاهدة لتوظيف الدراسات الاستشراقية من اجل فهم القوى التي تنافسها خاصة الشيوعية والاسلام؛ وبما ان الشيوعية قد انتهت، فهي تمارس حاليا الاستشراق بوجهه المعاصر مع الاسلام. إذ بدأت تهتم بالمجتمعات الاسلاميّة ميدانيا دينيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، أي انها اصبحت تهتم بدراسة الاسلام الشعبي ودراسة التصوف، والموالد والاضرحة. وركزت اكثر ابحاثها على دراسة الاسلام السّياسي والحركات السّياسية الاسلاميّة باستخدام المناهج السوسيولوجية والانثروبولوجية والنفسية والاحصائية والتاريخية. (الشرقاوي، م. 15:2016) وقد جاء في كتاب محمد الشّرقاوي اعتراف المستشرق الامريكي الجنسية البريطاني الاصل برنارد لويس Bernard Lewis (1916م) قائلا انه: "لا تزال اثار التعصب الدّيني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين، ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الابحاث العلمية." (الشرقاوي، م. 94:2016) حيث تقوم هذه الدراسات الاستشراقية على مسلمة مفادها ان الاسلام لن يستطيع مشاركة الاديان الاخرى في الوجود ما لم يصلح نفسه. وقد ساهمت بعض الدراسات الاستشراقية المعاصرة في نشر امراض القومية والعلمانية إذ أكدت على ان المسلم انما هو عربي أو فارسي أو تركي أو هندي قبل ان يكون مسلما، وهذا يؤدي بالمسلم إلى ان يعيش في اقلية مقهورة مرتبطة بعرقه. كما تركز الاهتمام الامريكي الاستشراقي على الدراسات الفارسية وانتشرت الخطابات الاتسشراقية التي تهدف إلى رزع الفتنة بين الشيعة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والسنة، فدافع المستشرقون عن الكمالية التركية واكدوا على ان كمال اتاتورك هو بالدرجة الاولى رجل مصلح. (الشرقاوي، م. 99:2016) وهذا خير دليل على استغلال النسق العلمي من اجل اغراض تخدم النسق السياسي المهيمن تحت غطاء العولمة، حيث تحضرنا هنا دراسة العالم السياسي الامريكي صمويل هنتجتون Samuel Huntington (1927م-2008م)، في كتابه "صدام الحضارات" الذي جعل الحضارة الاسلاميّة العدو الاول للحضارة الغربية. (هنتجتون، ص. 20:1999) كما اصبحت الدراسات الاستشراقية تعنى اكثر بالدّراسات الاستشرافية؛ أي استشراف المستقبل اعتمادا على ما كان موجودا من تراث الدّولة الاسلاميّة في السابق، وظهر نوع آخر من الاستشراق على شكل صور كاريكاتورية يهتم كثيرا بثروات ابلدان الشرقية كالبترول الذي يمثل متاعب أمريكا والسبب فيها هو الرجل الشرقي الذي يملك تلك الثروات الطبيعية.

خاتمة:

بعد عرضنا لأهم الانساق واثرها في تكوين الخطاب الاستشراقي، يتضح لنا جليا تأثير النسق الديني في النسق السلطوي السياسي والذي يؤثر بدوره في تكوين النسق المعرفي وفي تكوين الخطاب الاستشراقي في الوقت نفسه، اضافة الى مساهمة النسق المعرفي في تجذر النسق السلطوي السياسي داخل المجتمعات الشرقية، ليصبح النسق المعرفي حكرا بيد النسق السلطوي السياسي. وفي هذا الصدد اعتبر الفيلسوف الالماني فريديريك نيتشيه friederich Nietzsche (1844م-1900م) المعرفة رمزا للسلطة، أو هي ارادة السلطة. (العتابي، ل. 20:2016) وهنا تتم أدلجة المعرفة لتخدم السلطة، بالرغم من ان المعرفة فعل ذهني مكتسب مستمر ومتجدد، وهو نقيض الايديولوجيا المحتكرة المقيدة باطار المنفعة، لكن الحديث هنا يأخذنا الى ولوج المعرفة المجازية التي تدافع عن الايديولوجيا وتنقاد نحوها، فتجمل صورتها، وتخترع الافكار والنظريات من اجلها وتبرر افعالها، وتحدد بذلك مصير العلم والتطور وانسانية الجنس البشري، (العتابي، ل. 27:2016) وهذا يبرز لامعقولية الانساق الدينية السلطوية والمعرفية العلمية في تشكيل الخطاب الاستشراقي بالاعتماد على الاعتقادات المزيفة والتي اصبحت لاحقا وبفضل غالبية المستشرقين من المسلمات التي يعاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

انتاجها في الخطابات الاستشراقية الانية، والتي تحمل بين طياتها دلالات ورمزيات متفق عليها مسبقا في الكتابات الاستشراقية الغربية.

يمكننا ان نستشف جليا ان المستشرق الجديد قد خلف الاسلاف في اتخاد مواقف العداء الثقافي والمحافظة عليه". (ادوارد، س. 437:2006)ورغم وعي بعض المستشرقين بفظاعة ما كانوا يكتبونه عن التراث الاسلامي ووعيهم بتسخير النسق العلمي في خدمة النسق السياسي الديني إلا انهم مازالوا مستمرين في كتاباتهم ومركزين على استثمار الرواسب الثقافية الاستشراقية والاعتزاز بتوظيفها في دراسة التراث الاسلامي من اجل المحافظة على مصالح الدول المهيمنة سياسيا واقتصاديا. وهذا يعتبر اقصاء للمعرفة التراثية الاسلامية التي افاضت بخيراتها على الغرب الذي اصبح قوة عالمية في كل المجالات.

المراجع:

-ادوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.

-اوراغي احمد، الانثروبولوجيا في الجزائر، النشوء والذاكرة، دار ابن بطوطة للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، 2014 .

-بوتباقلت الطيب، عندما مهدت رسالة مؤسس الاباء البيض احتلال المغرب، مقال استخرج من الرابط https://www.hespress.com بتاريخ 2015/02/17، على الساعة 18:44

-بوشلوح سكينة، عرض كتاي الاستشراق الفرنسي، http://www.aranthropos.com/ بتاريخ 2017/12/20 س18:51

-بوطقطوقة مبروك، عرض كتاب جزائر الأنثروبولوجيين http://www.aranthropos.com بتاريخ 2017/12/20 س 18:42

-تورنر براين، الاستشراق ومشكلة المجتمع المدني في الاسلام، ترجمة مصطفى شادي ادريسي، مجلة الباب، العدد8، منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والابحاث، 2016.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-الحياتي محمود خليف خضير، الاستشراق والاستغراب، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن، دت.

-رائد امير عبد الله، رائد امير عبد الله، المستشرقون الالمان وجهودهم تجاه المخطوطات العربيّة الاسلاميّة، مجلة كلية العلوم الاسلاميّة، المجلد الثامن، العدد 1/15 ّ، 2014م.

-الرحمن أمة، دور الدّراسات الانثروبولوجية في تبرير القمع والاستعمار، موقع https://9alam.com/community/threads/dur-aldrasat-alantrbulugi-fi-tbrir-alqmy-u-alastymar.16318/ بتاريخ 2017/12/20 الساعة 17 ك55

-زقزوق محمد محمود ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصاع الحضاري، دار المنار، ط2، 1989م.

- زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص41، كتاب من الرابط https://books.google.dz/books?id ، استخرج بتاريخ 2018/02/19 على الساعة 20:19

-ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، دار المدار الإسلاميّ، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط1، 2001

- سيمور شارلوت ، موسوعة علم الانسان، ترجمة واشراف محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، ط2، 2009.

-الشرقاوي محمد عبد الله الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، دار البشير للثقافة والعلوم، مصر، 2016.

- العتابي ليت، جدلية الايديولوجي والمعرفي قراءة وتحليل لجملة من اطروحات محمد اركون، مركز عين للدراسات والبحوث المعاصرة، ط1، 2016.

-فرج محمد، النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، دار القومية للطباعة والنشر، مصر، دت.

- لوكا فيليب، جون كلود فاتان، جزائر الانثروبولوجيين، ترجمة محمد يحياتن، بشير بولفراق، منشورات الذكرى الاربعين للاستقلال، الجزائر، 2002.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-محارب معاذ، تغيرات الخريطة السورية من العهد العثماني حتى اليوم، مركز ادراك للدراسات والاستشارات، نوفمبر 2017.

- هنتجتون صمويل، صدام الحضارات ل ، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة، شركة سطور، ط2، 1999م.

-وثيقة تاريخية، اول بيان وجهنه فرنسا للشعب الجزائري بعد الانزال العسكري في الجزائر عام 1830م، هذا البيان موجود في الصفحة الاخيرة من كاتلوغ مكتبة أم.دي ساصي، المجلد3، عدد 5757. استخرج من الرابط http://www.algeriachannel.net بتاريخ 2018/02/17 على الساعة 18:04.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com